﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٢٣﴾﴾:

هنالك أمانٍ شيطانية مكشوفة بصورة رسمية لعباد الشيطان بما يسوِّله لهم، ثم هنا أمانٍ مغطَّاة بغطاءات كتابية من شرعة الله، فأهل كلّ شرعة له أمنية الاختصاص برحمة الله بمجرد انتسابه إلى تلك الشرعة، وكأنها دون شروط سياجٌ عن كافة العقبات والعقوبات، فعمل السوء - إذاً - لا يسيء إليه بسناد ذلك السياج.

وهنا الله يستأصل هذه الأماني من مسلمين وسواهم من كتابيين وسواهم، أن ﴿لَّيْسَ﴾ الجزاء واللّاجزاء ﴿بِأَمَانِيِّكُمْ﴾ لأنكم مسلمون ﴿وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾ لأنهم أهل كتاب، وإنما ﴿مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾ منكم ومن سواكم.

فحين يقول إسماعيل لأبيه الصادق عليه السلام: يا أبتاه ما تقول في المذنب منا ومن غيرنا؟ يقول: ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾[1].

= من اليد السفلى وما قل وكفى خير مما كثر وألهى وشرُّ المعذرة حين يحضر الموت وشرُّ الندامة يوم القيامة ومن الناس من لا يأتي الصلاة إلّا دبراً ومنهم من لا يذكر الله إلّا هجراً وأعظم الخطايا اللسان الكذوب وخير الغنى غنى النفس وخير الزاد التقوى ورأس الحكمة مخافة الله عزوجل وخير ما وقر في القلوب اليقين والارتياب من الكفر والنياحة من عمل الجاهلية والغلول من جثاء جهنم والكنز كيّ من النار والشعر من مزامير إبليس والخمر جماع الإثم والنساء حبالة الشيطان والشباب شعبة من الجنون وشرُّ المكاسب كسب الربا وشرُّ المآكل أكل مال اليتيم والسعيد من وعظ بغيره والشقي من شقي في بطن أمه وإنما يصير أحدكم إلى موضع أربعة أذرع والأمر بالآخرة وملاك العمل خواتمه وشرُّ الروايا روايا الكذب وكل ما هو آتٍ قريب وسباب المؤمن فسوق وقتال المؤمن كفر وأكل لحمه من معصية الله وحرمة ماله كحرمة دمه ومن يتأل على الله يكذبه ومن يغفر يُغْفر له ومن يغضب يغضب الله عنه ومن يكظم الغيظ يأجره الله ومن يصبر على الرزية يعوضه الله ومن يتبع السمعة يسمع الله به ومن يصبر يضعف الله له ومن يعصِ الله يعذبه الله اللهم اغفر لي ولأمتي قالها ثلاثاً استغفر الله لي ولكم.

(١) نور الثقلين ١: ٥٥٣ في عيون الأخبار في باب قول الرضا عليه السلام لأخيه زيد بن موسى حين =

نعم! وإن السوء يجزى به في الدارين أو في إحداهما ما لم يكفر عنه أو يتاب ويُستغفر فإن التائب عن الذنب كمن لا ذنب له.

فكل الأمم في ﴿يُجَزَ بِهِۦ﴾ سواسية سواء، والأمنيات المفضلة بعضها على بعض كلها منثورة هباءٌ، فإن ذلك قضية عدل الله.

ثم الجزاء فيما لم يستغفر عنه قد يكتفى به يوم الدنيا، فـ «ما يصيب المؤمن وَصَب ولا نَصَب ولا سقم ولا حزن حتى الهمّ يهمه إلّا كفَّر الله به من سيئاته»(١) وهذه شريطة الإيمان وكرامته، وأما الكافر فقد يجمع عليه جزاءه لما بعد موته إذ لا كرامة له على الله ويجزى على ظلمه قبل موته مزيداً.

وليس كلّ ما يصيب المؤمن دليلاً على ذنبه المكفَّر به، فإن المصائب تتواتر على الأمثل فالأمثل فـ «ما أصاب رجلاً من المسلمين نكبة فما فوقها - حتى ذكر الشوكة - إلّا لإحدى خصلتين: إلّا ليغفر الله من الذنوب ذنباً لم يكن ليغفر الله له إلّا بمثل ذلك، أو يبلغ به من الكرامة كرامة لم يكن يبلغها إلّا بمثل ذلك»(٢).

= افتخر على من في مجلسه بإسناده إلى أبي الصلت الهروي قال سمعت الرضا عليه السلام يحدث عن أبيه أن إسماعيل قال الصادق عليه السلام: . . .

وفي الدر المنثور ٢: ٢٢٥ - أخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن قتادة قال: ذكر لنا أن المسلمين وأهل الكتاب افتخروا فقال أهل الكتاب: نبيّنا قبل نبيكم وكتابنا قبل كتابكم ونحن أولى بالله منكم وقال المسلمون نحن أولى بالله منكم ونبينا خاتم النبيين وكتابنا يقضي على الكتب التي كانت قبله فأنزل الله هذه الآية.

(١) الدر المنثور ٢: ٢٢٧ عن أبي هريرة وأبي سعيد أنهما سمعا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: . . . أقول: وهذا المعنى رواه عنه صلى الله عليه وآله وسلم فيمن روى أبو بكر وعائشة وجماعة آخرون.

(٢) المصدر أخرج ابن أبي الدنيا والبيهقي عن بريدة الأسلمي سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: . . .

وفيه أخرج ابن سعد والبيهقي عن عبد الله بن إياس بن أبي فاطمة عن أبيه عن جدِّه عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: أيكم يحب أن يصح فلا يسقم؟ قالوا: كلنا يا رسول الله قال: أتحبّون =

فذلك النص الصارم يردُّ مختلف الأمم عن أمانيهم إلى العمل وحده على ضوء الإيمان بإسلام الوجه لله بكلّ الوجوه ظاهرة وباطنة:

﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴿١٢٤﴾﴾:

وتلك - إذاً - هي حياة طيبة لا غبار عليها كما في أخرى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾[1] ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِۦ وَإِنَّا لَهُۥ كَٰتِبُونَ﴾[2].

فلا فارق بين ذكر وأنثى في كيان العمل وقدر الجزاء إلّا بقدر الإيمان وعمله، كما لا فارق بين أمة وأمة في أصل الجزاء بقدره ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾.

وقد نفت ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾ ما كان يخيّل - من اللّاسواء بين العاملين الصالحات أو الطالحات - إلى هؤلاء الطائفيين في أمانيّهم الكاذبة الخواء، وما خيّل من الفارق بين ذكر وأنثى كما كانت تزعمه القدامى الهنود ومصر وسائر الوثنيين أن النساء لا ثواب على حسناتهن أم هو أقل، أو أن الكرامة والعزة هما فقط للرجال كما زعمته فرقة من اليهود والنصارى، ويزعمه مجاهيل من المسلمين وسواهم.

ثم ﴿مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ تبعيضاً دون تحليق على كلّ الصالحات توسعة ربانية

= أن تكونوا كالحمير الضالة - وفي لفظ الصيانة - ألا تحبون أن تكونوا أصحاب بلاء وأصحاب كفارات والذي نفسي بيده إن الله ليبتلي المؤمن وما يبتليه بالبلاء ليبلغ به تلك الدرجة».

(١) سورة النحل، الآية: ٩٧.

(٢) سورة الأنبياء، الآية: ٩٤.

لمن آمن وعمل صالحاً: ﴿مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾[١].

ولو انحصر دخول الجنة بالمؤمن العامل كلّ الصالحات لكانت الجنة خالية إلّا عن شذر قليل هم المقربون والسابقون، وانحسرت حتى عن العدول من المؤمنين فإن لهم لمماً.

ذلك، وليست الجنة - مع الوصف - لأهلها على حدٍّ سواءٍ، فقد يخرج من النار إلى الجنة، أو يدخل الجنة بلا نار ولكنها على حدِّه ومستحقه ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾.

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۗ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ﴿١٢٥﴾﴾:

والدين هو الطاعة، فمن حسن الطاعة الموافقة العلمية والعقيدية لحق الله وشرعته، ومن ثم حسن الموافقة العملية الصالحة المتبنية الإيمان والنية الصالحة، فـ ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ﴾ جارحة وجانحة ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ في كلا الوجهين ﴿وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ﴾ موحداً ﴿حَنِيفًا﴾ معرضاً عما يخالف التوحيد الحق وحق التوحيد ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا﴾ كأنه خلّ في ربه حيث أسلم له وجهه بكل وجوهه، ناسياً نفسه ونفسياته، ذاكراً ربه على أية حال.

ذلك ﴿۞ وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾[٢] وقد يروى عن رسول الهدى قوله ﷺ لما سئل عن الإحسان: «أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك»[٣].

(١) سورة البقرة، الآية: ٦٢.
(٢) سورة لقمان، الآية: ٢٢.
(٣) في المجمع في هذه الآية وروي أن النبي ﷺ سُئل عن الإحسان فقال . . .

ومن خلة إبراهيم خليل الرحمن ما بدا منه حين علِّق على المنجنيق فجاءه جبريل عليه السلام فقال: كلّفني ما بدا لك قد بعثني الله لنصرتك فقال: بل حسبي الله ونعم الوكيل إني لا أسأل غيره ولا حاجة إلّا إليه»[١].

فقد سماه الله خليله لأنه لم يسأل أحداً شيئاً قط ولم يُسأل شيئاً قط فقال لا[٢].

ذلك! «ولئن اتخذ الله إبراهيم خليلاً فقد اتخذ الله محمداً صلى الله عليه وآله حبيباً»[٣] وأين حبيب من خليل! ولأن الخلة درجات فخلة الحبيب

(١) نور الثقلين ١: ٥٥٤ في كتاب الاحتجاج للطبرسي حديث طويل عن النبي صلى الله عليه وآله يقول فيه قولنا: إن إبراهيم خليل الله فإنما هو مشتق من الخلة أو الخلة، فأما الخلة فإنما معناها الفقر والفاقة وقد كان خليلاً إلى ربه فقيراً وإليه منقطعاً وعن غيره متعفِّفاً معرضاً مستغنياً وذلك لما أريد قذفه في النار فرمى المنجنيق فبعث الله إلى جبرئيل فقال له: أدرك عبدي فجاءه فلقيه في الهواء فقال: كلفني ما بدا لك قد بعثني الله لنصرتك فقال: بل حسبي الله ونعم الوكيل إني لا أسأل غيره ولا حاجة إلّا الله فسماه خليله أي فقيره ومحتاجه والمنقطع إليه عمن سواه إذا لم ينقطع اليه لم يكن خليله وإذا لم يعلم بأسرار لم يكن خليله؟
وفيه في عيون الاخبار في باب ما جاء عن الرضا عليه السلام من العلل بإسناده إلى الحسين بن خالد عن أبي الحسن الرضا عليه السلام قال سمعت أبي يحدث عن أبيه عليه السلام أنه قال: إنما اتخذ الله عزوجل ابراهيم خليلاً لأنه لم يرد أحداً ولم يسأل أحداً قط غير الله.

(٢) المصدر ٥٥٥ في الكافي عن معاوية بن عمار عن زيد الشحام عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «إن ابراهيم عليه السلام كان أبا أضياف فكان إذا لم يكونوا عنده خرج يطلبهم وأغلق بابه وأخذ المفاتيح يطلب الأضياف وأنه رجع إلى داره فإذا هو برجل أو شبه رجل في الدار فقال: يا عبد الله بإذن من دخلت هذه الدار؟ قال: دخلتها بإذن ربها يردِّد ذلك ثلاث مرات فعرف إبراهيم أنه جبرئيل فحمد ربه ثم قال: أرسلني ربك إلى عبده من عبيده يتخذه خليلاً قال ابراهيم فأعلمني من هو أخدمه حتى أموت؟ قال: فأنت هو، قال: مِمَ ذلك؟ قال: لأنك لم تسأل أحداً...

(٣) المصدر في الاحتجاج عن النبي صلى الله عليه وآله حديث طويل في مكالمة بينه وبين اليهود وفيه قالوا: إبراهيم خير منك، قال: ولِمَ ذلك؟ قالوا: لأن الله تعالى اتخذه خليلاً، قال النبي صلى الله عليه وآله: إن كان إبراهيم عليه السلام خليلاً فأنا حبيبه محمد.

محمد ﷺ أعلى الدرجات[١] وقد قال الله: «لأوثرن حبيبي على خليلي ونجيي»[٢].

ولقد كانت هذه حلقة صارحة صارمة في إنشاء التصور الإيماني الصحيح عن العمل والجزاء، ذات الأهمية الكبرى في تصليح العقيدة من ناحية وفي استقامة العملية من أخرى.

ذلك، ولأن الكون كله لله خلقاً وتدبيراً فهو العادل كلّ العدل فيه بلا منازع ولا رشىً:

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطًا ﴿١٢٦﴾﴾:

فله الحيطة الشاملة بما في السماوات وما في الأرض من إسراره وإعلانه، وهو القادر العليم الرحيم، فأينما وجُد إسلام الوجه مع الإحسان واتّباع ملة التوحيد، فهنالك الجنة ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾ ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾[٣].

(١) الدر المنثور ٢: ٢٣٠ - أخرج الحاكم وصححه عن جندب أنه سمع النبي ﷺ يقول قبل أن يتوفى: إن الله اتخذني خليلاً كما اتخذ إبراهيم خليلاً.
وفيه أخرج الطبراني عن سمرة قال كان رسول الله ﷺ يقول: إن الأنبياء يوم القيامة كلّ اثنين منهم خليلان دون سائرهم، قال: فخليلي منهم يومئذ خليل الله إبراهيم».

(٢) المصدر عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «اتخذ الله إبراهيم خليلاً وموسى نجيًّا واتخذني حبيباً ثم قال: وعزتي لأوثرن حبيبي على خليلي ونجيي».
أقول: ولئن اصطفى الله إبراهيم بالخلة وموسى بالكلام فقد اصطفى محمداً ﷺ بالرؤية وهي المعرفة القمة التي لا تُسامى ولا تُساوى وهي مقام «أو أدنى» بعد «دنى».

(٣) سورة النجم، الآية: ٣٩.

﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي ٱلنِّسَآءِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي ٱلْكِتَٰبِ فِي يَتَٰمَى ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلْوِلْدَٰنِ وَأَن تَقُومُوا۟ لِلْيَتَٰمَىٰ بِٱلْقِسْطِ ۚ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِهِۦ عَلِيمًا ﴿١٢٧﴾ وَإِنِ ٱمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنۢ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا ۚ وَٱلصُّلْحُ خَيْرٌ ۗ وَأُحْضِرَتِ ٱلْأَنفُسُ ٱلشُّحَّ ۚ وَإِن تُحْسِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٢٨﴾ وَلَن تَسْتَطِيعُوٓا۟ أَن تَعْدِلُوا۟ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ ۖ فَلَا تَمِيلُوا۟ كُلَّ ٱلْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَٱلْمُعَلَّقَةِ ۚ وَإِن تُصْلِحُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٢٩﴾ وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ وَٰسِعًا حَكِيمًا ﴿١٣٠﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۚ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ وَإِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا ﴿١٣١﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٣٢﴾ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ وَيَأْتِ بِـَٔاخَرِينَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا ﴿١٣٣﴾ مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ ثَوَابُ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿١٣٤﴾﴾

هذه تكملة لما بدأت به السورة من حقل الأنوثة المظلومة في الجاهلية

الجهلاء، وسائر الضعاف من الولدان واليتامى، وإقامة للبيت العائلي على كرامة شَطْري النفس الواحدة، وإصلاح لما قد يتشجر بينهما قبل استفحاله.

وقد يُناسب الاستفتاء والفتوى في النساء سابقة التسوية السابغة بين الذكر والأنثى في الأعمال وأجورها، كما هما يفسِّران المعنيَّ من اليتامى أنهن أو منهن النساء الخليَّات من الأزواج المتوفى عنهن آباءهن، ومن ثم تفسير للعدل المفروض بينهن في عديد الزواج.

﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي ٱلنِّسَآءِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي ٱلْكِتَٰبِ فِي يَتَٰمَى ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلْوِلْدَٰنِ وَأَن تَقُومُوا۟ لِلْيَتَٰمَىٰ بِٱلْقِسْطِ ۚ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِهِۦ عَلِيمًا ﴿١٢٧﴾﴾:

الاستفتاء هي طلب الفتيِّ من الرأي القويِّ، واستفتاء الرسول بحقِّه لا يعني إلّا طلب الوحي فيما يطلبون، نازلاً عليه من قبل أو ما ينزل قضيةَ السؤال فلذلك يقول: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ﴾ لا «أنا أفتيكم فيهن» صرفاً لأية فتوى عن رسول الله إلى الله.

ولأن الاستفتاء في النساء تعمُّ مسألة الزواج بهن ومواريثهن وسائر حقوقهن حيث كانت هي مِحْوَر السلب والإيجاب بين الجاهلية الظالمة والشرعة العادلة، إذاً فـ ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ...﴾، فـ ﴿وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي ٱلْكِتَٰبِ﴾ هي الآيات في أوّل النساء بشأن التسوية بينهن وبين الرجال حيث ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾[1] وإعطاء حقوقهن كبيرات ويتيمات: ﴿وَءَاتُوا۟ ٱلْيَتَٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْ﴾[2] والإقساط في اليتيمات المسموح زواجهن ﴿مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ

(١) سورة النساء، الآية: ١.
(٢) سورة النساء، الآية: ٢.

﴿وَرُبَٰعَۖ﴾[١] وهذه مما يتلى عليكم في الكتاب في يتامى النساء، أي المنقطعات عن الآباء وعن الأزواج حيث لا مُدافِعَ عنهن صامداً ﴿ٱلَّٰتِي لَا تُؤۡتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ﴾ من صدقات ونفقات ومواريث ﴿وَتَرۡغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ﴾.

ذلك ﴿وَٱلۡمُسۡتَضۡعَفِينَ مِنَ ٱلۡوِلۡدَٰنِ﴾ يتامى أم سفهاء ﴿وَلَا تُؤۡتُواْ ٱلسُّفَهَآءَ أَمۡوَٰلَكُمُ ٱلَّتِي جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمۡ قِيَٰمٗا وَٱرۡزُقُوهُمۡ فِيهَا وَٱكۡسُوهُمۡ وَقُولُواْ لَهُمۡ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا﴾[٢] ﴿وَأَن تَقُومُواْ لِلۡيَتَٰمَىٰ بِٱلۡقِسۡطِۚ﴾ كباراً كالنساء اليتيمات المعنيات بـ﴿يَتَٰمَى ٱلنِّسَآءِ﴾ أم صغاراً: ﴿وَٱبۡتَلُواْ ٱلۡيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُواْ ٱلنِّكَاحَ﴾[٣] هناك ﴿وَأَن تَقُومُواْ لِلۡيَتَٰمَىٰ بِٱلۡقِسۡطِۚ﴾ هنا.

وحصيلة تلكم الفتيّ بحق يتامى النساء والمستضعفين يتامى وسواهم، أن حقوقهم لا تذهب هَدْراً بضعفهم وصغرهم ويُتْمِهم، بل هم - بأحرى ممن سواهم - يظلّون تحت ظلِّ الله ورعايته، ولا سيّما اليتامى الذين تفوق حقوقُهم حقوق مَن سواهم!.

وهكذا نستوضح المعنيّ من ﴿وَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا تُقۡسِطُواْ فِي ٱلۡيَتَٰمَىٰ فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾[٤] أن من المعني هنا من ﴿ٱلۡيَتَٰمَىٰ﴾ - ﴿يَتَٰمَى ٱلنِّسَآءِ﴾ فنتأكّد أن اليُتم لا يختص بعدم بلوغ النكاح، بل والنساء المتوفى عنهن آباءهن وهن غير متزوجات أو المتوفى عنهن أزواجهن، هن ﴿يَتَٰمَى ٱلنِّسَآءِ﴾ - حيث تعني النساء اليتامى بإضافة الصفة إلى الموصوف - إذ كُنّ في استغلال النكاح للذين قال الله عنهم: ﴿لَا تُؤۡتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرۡغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ﴾ ومن ثم ﴿وَٱلۡمُسۡتَضۡعَفِينَ مِنَ ٱلۡوِلۡدَٰنِ﴾ أياً كانوا، ثم ﴿وَأَن تَقُومُواْ لِلۡيَتَٰمَىٰ بِٱلۡقِسۡطِۚ﴾

(١) سورة النساء، الآية: ٣.
(٢) سورة النساء، الآية: ٥.
(٣) سورة النساء، الآية: ٦.
(٤) سورة النساء، الآية: ٣.

كضابطة تحلّق على كلّ اليتامى صغاراً أو كِباراً: ﴿وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِهِۦ عَلِيمًا﴾.

وفي نظرةٍ أخرى إلى الآية أدبية هنا تحويل لأصل الفتوى إلى الله ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ﴾ كما فيمن سِواهن وما سِواهن من أحكام فتيّة تطاع في شرعة الله.

وكما «و» يفتيكم في ﴿وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي ٱلْكِتَٰبِ﴾ ككلٍّ، المحلِّق على كلّ الأحكام الأنثوية بالنسبة لأنفسهن وأعراضهن وأموالهن وعِشرتهن مع أزواجهن وسواهم، ولا سيّما ما يُتلى ﴿فِي يَتَٰمَى ٱلنِّسَآءِ﴾ كما سبقت في آية عديد الزوجات، «و» في «المستضعفين» بصورة عامة و﴿مِنَ ٱلْوِلْدَٰنِ﴾ فإنهم أبرز مصاديقهم، و﴿يُفْتِيكُمْ﴾ ﴿وَأَن تَقُومُواْ لِلْيَتَٰمَىٰ بِٱلْقِسْطِ﴾ أيّاً كانوا، ذكوراً وإناثاً، بنات ونساءً.

فلقد تناولت هذه الفتوى - كما سواها في مختلف الحقول - تصويراً للواقع المترسب في الجماعة المسلمة من الجاهلية التي التقطه منها المنهج الرباني، كما وتناولت التوجيه المطلوب الوجيه لرفع الحيوية الإسلامية تَطْهيراً لها من كلّ الرواسب الجاهلية.

ولقد كانت اليتيمة تَلْقى من وليّها طمعاً في مالها وغبناً في مهرها سواء تزوّج بها لجمالها أم لم يتزوج بها لدمامتها فاستغلها لما لها.

وقد تعني ﴿وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ﴾ رغبتهم عن نكاحهن ضمن ما عنت من الرغبة في نكاحهن، وعلى أيّ الحالين ﴿لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ﴾ زواجاً وغير زواج، فإن تزوجتموهن ﴿لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ﴾ من مال وعشرة صالحة وسائر حقوق الزوجية، وإن لم تتزوجوا بهن ومنعتموهن عن الزواج رغبة في أموالهن أو في خدمتهن فقد جمعتم إلى الخيانة المالية خيانة نفسية